الصحبة

عناصر الموضوع

مفهوم الصحبة	٣٢٤
الصحبة في الاستعمال القرآني	٣٢٥
الألفاظ ذات الصلة	٣٢٦
أنواع الصحبة في القرآن	٣٢٩
أسباب الصحبة	٣٣٧
حقوق الصحبة	٣٣٩
آثار الصحبة في الدنيا	٣٤٢
عاقبة الصحبة في الآخرة	٣٤٨

مفهوم الصحبة

أولًا: المعنى اللغوي:

الصاد والحاء والباء أصلٌ واحدٌ يدل على مقارنة شيءٍ ومقاربته، ومن ذلك الصاحب[١]، ويجمع بالصحب، والصحبان والصحبة والصحاب، والأصحاب: جماعة الصحب[٢]، ومن الباب: أصحب فلانٌ إذا انقاد، وأصحب الرجل إذا بلغ ابنه مبلغ الرجال، فصار مثله، فكأنه صاحبه، واستصحب الرجل: دعاه إلى الصحبة، ولازمه، وكل ما لازم شيئًا فقد استصحبه[٣]، لذلك يطلق مجازًا على من اعتنق مذهبًا أو رأيًا فيقال: أصحاب أبي حنيفة، وأصحاب الشافعي[٤]، والصحبة- بالضم-: المعاشرة، صحبه صحبة وصحابة وصحابة، وصاحبه: عاشره، والصاحب: المعاشر[٥]، وكذا: المرافق، ومالك الشيء، والقائم على الشيء، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ [المدثر:٣١][٦].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

المعنى الاصطلاحي لا يختلف كثيرًا عن المعنى اللغوي، فقد قال الراغب: «الصاحب: الملازم، إنسانًا كان أو حيوانًا أو مكانًا أو زمانًا، ولا فرق بين أن تكون مصاحبته بالبدن وهو الأصل والأكثر، أو بالعناية والهمة، ولا يقال في العرف إلا لمن كثرت ملازمته»[٧].

وعرفها ابن عاشور بأنها: «الملازمة في أحوال التجمع والانفراد للمؤانسة والموافقة، ومنه قيل للزوج: صاحبة، وللمسافر مع غيره صاحب، وقد يتوسعون في إطلاقه على المخالط في أحوال كثيرة، ولو في الشر»[٨].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٣٥.
(٢) العين، الفراهيدي ٣/ ١٢٤.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٣٥، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٥٢٠.
(٤) انظر: المصباح المنير، الفيومي ١/ ٣٣٣، المعجم الوسيط،مجمع اللغة العربية ١/ ٥٠٧.
(٥) انظر: المخصص، ابن سيده ٣/ ٤٢٩، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٥١٩.
(٦) انظر: المعجم الوسيط،مجمع اللغة العربية ١/ ٥٠٧.
(٧) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٧٥.
(٨) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ١٥٧.

الصحبة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (صحب) في القرآن الكريم (١٠٦) مرات[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٢	﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾ [الكهف:٧٦]
فعل الأمر	١	﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:١٥]
اسم الفاعل	١٠٣	﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النساء:٣٦]

وجاءت الصحبة في القرآن الكريم بمعناها اللغوي الدال على الملازمة[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٣٨٧.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٠٣-٣٠٤، نزهة الأعين النظائر في علم الوجوه والنظائر، ابن الجوزي، ص٣٩٢-٣٩٣، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزآبادي، (٣/ ٣٨٦-٣٨٧)، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، السمين الحلبي، (٢/ ٣٢٠-٣٢١).

الألفاظ ذات الصلة

١ الرفقة:

الرفقة لغة:

الرفقة: الصحبة في السفر أو غيره، يقال: رافق الرجل صاحبه، ورفيقك:الذي يرافقك، وقيل:هو الصاحب في السفر خاصة[١].

وسمي الصاحب رفيقًا؛ لارتفاقك به وبصحبته، ويقال للجماعة في السفر: رفقة؛ لارتفاق بعضهم ببعض[٢].

الرفقة اصطلاحًا:

لا يختلف معنى الرفقة اصطلاحًا عن معناها اللغوي، والرفقة تقال للقوم ما داموا منضمين في مجلس واحد ومسير واحد، فإذا تفرقوا ذهب عنهم اسم الرفقة، ولم يذهب عنهم اسم الرفيق[٣].

الصلة بين الرفقة والصحبة:

الرفقة أخص من الصحبة، والصحبة أعم، ففي لفظ (الرفيق) معنى الرفق والرحمة، بخلاف الصحبة؛ فقد يوجد الرفق فيها، وقد يوجد العذاب كما هو مع أصحاب النار.

٢ الصداقة:

الصداقة لغة:

الصداقة: مصدر الصديق، وهو مشتق من صدق المودة والنصيحة، والجمع صدقاء وصدقانٌ وأصدقاء وأصادق[٤].

والصديق: الصاحب الصادق في المودة[٥]، وإنما سمي الصديق صديقًا لصدقه[٦].

الصداقة اصطلاحًا:

لا يختلف معناها الاصطلاحي عن المعنى اللغوي، ولذا عرفها المناوي بأنها: «صدق

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ١٢٠.
(٢) الوسيط، الواحدي ٢/ ٧٨.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ١٢٠.
(٤) انظر: المصدر السابق ١٠/ ١٩٤.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٣٠٢.
(٦) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ١٦١.

الاعتقاد في المودة، وذلك يختص بالإنسان دون غيره»[١].

الصلة بين الصداقة والصحبة:

الصداقة أخص من الصحبة، فهي تختص بالإنسان دون غيره، فكل صديق صاحب، وليس كل صاحب صديقًا.

٣ الأخوة:

الأخوة لغة:

الأخ: «المشارك آخر في الولادة من الطرفين، أو من أحدهما أو من الرضاع. ويستعار في كل مشارك لغيره في القبيلة، أو في الدين، أو في صنعة، أو في معاملة أو في مودة، وفي غير ذلك من المناسبات»[٢].

وأكثر ما يستعمل الإخوان في الأصدقاء، والإخوةُ في الولادة[٣].

الأخوة اصطلاحًا:

لا يختلف معناها الاصطلاحي عن المعنى اللغوي، الذي يشمل أخوة النسب والصداقة والمشاركة في قبيلة أو دين أو صنعة وغير ذلك.

الصلة بين الأخوة والصحبة:

كل واحد منهما أخص من الآخر من جهة وأعم من جهة أخرى، فهناك أخ ليس بصاحب، وهناك صاحب ليس بأخ، وإذا قابلت بينهما فالأخ أعلى[٤].

٤ القرين:

القرين لغة:

القرين: المقارن والمصاحب، والزوج، والبعير المقرون بآخر، والأسير، والجمع: قرناء[٥]، والقرين يكون في الخير والشر، وكل إنسان معه قرين، فقرينه من الملائكة يأمره بالخير ويحثه عليه، وقرينه من الشياطين يأمره بالشر ويحثه عليه[٦].

(١) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢١٣.
(٢) المفردات ص ٦٨.
(٣) الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٢٦٤.
(٤) انظر: معجم المناهي اللفظية، بكر أبو زيد ص ٥٦.
(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٣١.
(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الجزري ٤/ ٥٤.

القرين اصطلاحًا:

لا يختلف معناه الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

الصلة بين القرين والصحبة:

الصحبة تفيد انتفاع أحد الصاحبين بالآخر غالبًا، ولهذا يستعمل في الآدميين خاصةً، فيقال: (صحب زيد عمرًا)، و(صحبه عمرو)، ولا يقال: (صحب النجم النجم)، أو (الكون الكون) والمقارنة: تفيد قيام أحد القرينين مع الآخر، ويجري على طريقته وإن لم ينفعه، ومن ثم قيل: (قران النجوم)، وقيل للبعيرين يشد أحدهما إلى الآخر بحبل: (قرينان)[١].

٥ العشرة:

العشرة لغة:

العِشرة: اسم من المعاشرة وهي المخالطة[٢]، والعشير: الصاحب والزوج[٣]، والعرب تسمى الزوج:عشيرًا؛ لأجل المخالطة[٤]، والعشيرة: أهل الرجل الذين يتكثر بهم[٥].

الرفقة اصطلاحًا:

لا يختلف معنى العشرة اصطلاحًا عن معناها اللغوي.

الصلة بين العشرة والصحبة:

العشرة ترادف مفهوم الصحبة، فكلاهما يدل على المعاشرة والمخالطة، إلا إن العشرة تعتبر من معاني الصحبة، فلفظ الصحبة إذن أعم من لفظ العشرة، فكل صحبة عشرة، وليس كل عشرة صحبة.

(١) الفروق اللغوية، العسكري ص ٣٠٨.
(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ٢/ ٧٤٧، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٤٢.
(٣) مجمل اللغة، ابن فارس ص ٦٧٠.
(٤) تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٤٢٦.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٦٧.

أنواع الصحبة في القرآن

حث الله تعالى في محكم التنزيل على ملازمة أهل الصلاح والإيمان، ونهى عن ملازمة أهل الغفلة والضلال، حيث قال جل وعلا: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨].

وفي هذا المبحث سوف نذكر نوعين من الصحبة في كتاب الله عز وجل.

أولًا: الصحبة الصالحة:

أشار القرآن الكريم لهذا النوع من الصحبة، وسوف نذكر منها ما يأتي:

١. صحبة موسى عليه السلام للخضر.

ذكر الله تعالى رحلة موسى عليه السلام وملازمته للخضر في محكم التنزيل، ولم يذكر أسباب تلك الرحلة، إلا أن السنة النبوية أوضحت أن سبب الرحلة كان عتاب الله سبحانه وتعالى لنبيه موسى عليه السلام عندما سئل هل في الأرض أحد أعلم منك؟ قال:لا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: أن عبدًا من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك الخ [(١)].

والتقى موسى عليه السلام بالخضر في ذلك المكان بعد رحلة طويلة وشاقة، فكان ما قص الله من نبأهما في محكم التنزيل.

قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف:٦٥-٦٦].

إلى قوله جل وعلا: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٨٢].

وسوف نذكر بعضًا من الفوائد والعبر من صحبة موسى عليه السلام للخضر، منها:

- أن ما فعله موسى عليه السلام، وهو من جلة الأنبياء من طلب العلم، والرحلة في ذلك، ما يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم، وأن يتواضع لمن هو أعلم منه [(٢)].
- كان سؤال موسى عليه السلام للخضر في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف:٦٦].
- سؤال الملاطف، والمخاطب المستنزل المبالغ في حسن الأدب [(٣)]،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب ما يستحب للعالم إذا سئل: أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلى الله، رقم ١٢٢.
(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٣٠١.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي

وهذا بلا ريب تعليم لآداب الصحبة أنها تكون باتفاق النفوس، وتلاقي القلوب، والاستفهام لبيان إرادة الإتباع في أبلغ أدب[1].

- أن العلم الذي يعلمه الله للعبد نوعان: علم مكتسب، يدركه العبد بطلبه وجده، وعلم إلهي لدني، يهبه الله لمن يمن عليه من عباده، لقوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥]. فالخضر أعطي من هذا النوع الحظ الأوفر[2].
- في قوله تعالى على لسان الخضر لموسى عليه السلام: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٧٨]. قالوا: إن هذا من أدب الصحبة[3]، فلا ينبغي للعبد أن يفارق صاحبه في حال من الأحوال ويترك صحبته، بل يفي له بذلك حتى لا يجد للصبر محلًا، وأن موافقة الصاحب لصاحبه في غير الأمور المحذورة مدعاة وسبب لبقاء الصحبة وتأكدها، كما أن عدم الموافقة سبب لقطع المرافقة[4].

٢. صحبة أهل الكهف.

وهم مجموعة من الشباب، لجؤوا إلى غار في الجبل، فرارًا بدينهم من أقوامهم، الذين كانوا يعبدون الأصنام، وحدثت لهم بهذا الغار الأعاجيب، وقد ذكر الله قصتهم باختصار في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ [الكهف:٩-١٢].

ثم بدأ بتفصيلها بعد هذا الإجمال في أربع عشرة آية بعد ذلك.

قال السعدي عنهم: «هم فتية وفقهم الله، وألهمهم الإيمان، وعرفوا ربهم، وأنكروا ما عليه قومهم، من عبادة الأوثان، وقاموا بين أظهرهم معلنين فيما بينهم عقيدتهم، خائفين من سطوة قومهم فقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف:١٤].

فلما اتفقوا على هذا الأمر، وعرفوا أنهم لا يمكنهم إظهار ذلك لقومهم سألوا الله أن يسهل أمرهم فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف:١٠].

فأووا إلى غار يسره الله غاية التيسير، واسع الفجوة فناموا في كهفهم بحفظ الله ورعايته ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعا»[5].

١٧/١١.

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٩/ ٤٥٥٩.
(٢) تيسير اللطيف المنان، السعدي ص٢٥٦.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٩٦٦.
(٤) انظر: تيسير اللطيف المنان، السعدي ص٢٥٩
(٥) المصدر السابق ص٢٨٧.

فهؤلاء فتية ضحوا في سبيل عقيدتهم وفروا بدينهم من سعة الحياة إلى ضيق الكهف؛ ليكونوا مثلًا لكل أهل عقيدة، ودليلًا على أن الله تعالى ينصر أهله ويدافع عنهم ويخلد ذكراهم إلى قيام الساعة[١].

وقد ذكر السعدي فوائد وعبر من هذه القصة منها:

- أن من أوى إلى الله أواه الله، ولطف به، وجعله سببًا لهداية الضالين؛ فإن الله لطف بهم في هذه النومة الطويلة إبقاء على إيمانهم وأبدانهم من فتنة قومهم وقتلهم، وجعل هذه النومة من آياته التي يستدل بها على كمال قدرة الله، وتنوع إحسانه، وليعلم العباد أن وعد الله حق.
- الحث والتحرز والاستخفاء، والبعد عن مواقع الفتن في الدين، واستعمال الكتمان الذي يدرأ عن الإنسان الشر[٢].
- أن الملازم لأهل الفضل لا بد أن يناله شيء من ذكر جميل وشأن عظيم[٣]، فقد نال كلبهم ذلك الذكر والشأن في صحبتهم، قال تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف:١٨]. قال ابن كثير:«وشملت كلبهم بركتهم، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذا فائدة صحبة الأخيار؛ فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن»[٤]، وهذا الذكر والشأن قد خلص إلى كلب لازم أهل الفضل، فما بال من لازمهم واقتدى بصلاحهم؟![٥].

٣. صحبة أبي بكر الصديق لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

صحب أبو بكر الصديق رضي الله عنه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم منذ إسلامه إلى وفاته، ولم يفارقه أبدًا، وشارك معه في غزواته، وبذل نفسه وماله في سبيل الدعوة إلى الله تعالى، وهاجر مع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ولم يتركه أبدًا طيلة حياته، ونال بذلك شرف الصحبة معه في الغار، حيث قال جل وعلا في محكم التنزيل: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠].

قال السعدي: «وفي هذه الآية الكريمة فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصة لم تكن لغيره من هذه الأمة، وهي الفوز بهذه المنقبة الجليلة، والصحبة الجميلة، وقد

(١) انظر: تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٨٦٥.
(٢) تيسير اللطيف المنان، السعدي ص٢٨٨-٢٨٩.
(٣) انظر:غاية المنوة في آداب الصحبة وحقوق الأخوة، حازم خنفر ص ٢٥.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٤٤.
(٥) انظر:غاية المنوة في آداب الصحبة وحقوق الأخوة، حازم خنفر ص ٢٥.

أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة، ولهذا عدوا من أنكر صحبة أبي بكر للنبي صلى الله عليه وسلم كافرًا، لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها وفيها: أن الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين، مع أن الأولى -إذا نزل بالعبد- أن يسعى في ذهابه عنه، فإنه مضعف للقلب، موهن للعزيمة»[1].

٤. صحبة يوسف عليه السلام للفتيين في السجن.

دخل يوسف عليه السلام السجن، وكان في جملة من دخل معه فتيان، فلما رأيا من فضله وإحسانه في السجن طلبا منه تأويل رؤياهما.

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [يوسف:٣٦].

قال أبو حيان: «ومع تدل على الصحبة واستحداثها، فدل على أنهم سجنوا الثلاثة في ساعة واحدة، ولما دخل يوسف السجن استمال الناس بحسن حديثه وفضله ونبله، وكان يسلي حزينهم، ويعود مريضهم، ويسأل لفقيرهم، ويندبهم إلى الخير، فأحبه الفتيان ولزماه»[2].

وتوسما من يوسف عليه السلام كمال العقل والفهم فظنا أنه يحسن تعبير الرؤيا، ولذلك قالا: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3].

فانتهز الفرصة ودعاهما إلى عبادة الله تعالى وحده، وترك ما سواه من عبادة الأصنام قبل تأويل رؤياهما، وهذه طبيعة المؤمن أن يكون حريصًا على دعوة وهداية الآخرين إلى الخير والصلاح، وقدم قبل الدعوة ما يكون معجزة له من الإخبار بالغيب ليدلهما على صدقه في الدعوة والتعبير.

قال تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى﴾ [يوسف:٣٧][4].

فناداهما باسم الصحبة في المكان الشاق الذي تخلص فيه المودة وتتمخض فيه النصيحة؛ ليقبلا عليه ويقبلا مقالته، وقد ضرب لهما مثلًا يتضح به الحق عندهما حق اتضاح.

قال تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٣٨.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٢٧٥.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٦٩.
(٤) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٦٣.

﴿٤٠﴾[يوسف:٣٩-٤٠][1].

فأورد الدليل على بطلان ملة قومهما بقوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ﴾ فأبرز ذلك في صورة الاستفهام حتى لا تنفر طباعهما من المفاجأة بالدليل من غير استفهام، وهكذا الوجه في محاجة الجاهل أن يؤخذ بدرجة يسيرة من الاحتجاج يقبلها، فإذا قبلها لزمته عنها درجة أخرى فوقها، ثم كذلك إلى أن يصل إلى الإذعان بالحق[2].

فيوسف عليه السلام دعا صاحبي السجن لعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، فيحتمل أنهما استجابا وانقادا، فتمت عليهما النعمة، ويحتمل أنهما لم يزالا على شركهما، فقامت عليهما -بذلك- الحجة، ولعل يوسف عليه الصلاة والسلام قصد أن يدعوهما إلى الإيمان في هذه الحال التي بدت حاجتهما إليه، ليكون أنجع لدعوته، وأقبل لهما[3]، وجعل سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام وصلة وسببًا إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام، لما رأى في سجيتهما من قبول الخير والإقبال عليه، والإنصات إليه[4].

٥. صحبة الأخيار المداومين على عبادة الله تعالى.

حث الله تعالى على ملازمة الأخيار من عباده، المداومين على ذكره، حيث قال جل وعلا: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف:٢٨].

يقول السعدي في تفسير هذه الآية: «يأمر تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم، وغيره أسوته، في الأوامر والنواهي أن يصبر نفسه مع المؤمنين العباد المنيبين ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ أي: أول النهار وآخره يريدون بذلك وجه الله، فوصفهم بالعبادة والإخلاص فيها، ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء فإن في صحبتهم من الفوائد ما لا يحصى»[5].

والتعبير عنهم بالموصول للإيماء إلى تعليل الأمر بملازمتهم، أي لأنهم أحرياء بذلك؛ لأجل إقبالهم على الله فهم الأجدر بالمقارنة والمصاحبة[6].

فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه، فإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى عز وجل، واتباع السنة، وأمره غير مفروط عليه بل هو حازم في أمره

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٢٧٨، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٢٧٨.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٢٧٨.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٩٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٩٠.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٧٥.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٠٥.

فليستمسك بغرزه[1].

٦. صحبة الوالدين.

أعظم صحبة للإنسان هي صحبة الوالدين، وهي صحبة صالحة يرضي بها الإنسان ربه، ويسعد بها في دنياه، ويرجو بها حسن الثواب في الآخرة، وقد أمر الله تعالى ببر الوالدين والإحسان إليهما، وقرن طاعته بطاعتهما بعده مباشرة.

قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣].

ومفهوم الإحسان إلى الوالدين كما ذكر القرطبي: «معاشرتهما بالمعروف، والتواضع لهما، وامتثال أمرهما، والدعاء بالمغفرة بعد مماتهما، وصلة أهل ودهما[2]، وبرهما وحفظهما وصيانتهما، وإزالة الرق عنهما، وترك السلطنة عليهما»[3].

والأمر بالإحسان يتضمن النهي عن الإساءة، إذ هو نهي عن الإساءة، وأمر بفضل العاطفة والمواساة والقرب، وإحسان الصحبة[4].

وفي الآية دليل واضح على عظم صحبة الوالدين بالإحسان إليهما، فقد أتى بعد حق الله جل وعلا الذي هو من أعلى الحقوق وأعظمها، قال ابن كثير: «وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تعالى، أن يعبد وحده لا شريك له، ثم بعده حق المخلوقين، وآكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين، ولهذا يقرن الله تعالى بين حقه وحق الوالدين، كما قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان:١٤].

وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]»[5].

ومما يدل كذلك على عظم صحبة الوالدين، وأنها من آكد حقوق المخلوقين، ما جاء في الحديث الصحيح، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: (أمك) قال: ثم من؟ قال: (ثم أمك) قال: ثم من؟ قال: (ثم أمك) قال: ثم من؟ قال: (ثم أبوك)[6].

بل إن الله تعالى أمر بصحبتهما وإن كانا كافرين، ولكن بما يرتضيه الشرع.

قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:١٥].

(١) الوابل الصيب، ابن القيم ص ٤١ بتصرف واختصار.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٣.
(٣) المصدر السابق ٧/ ١٣٢.
(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٥/ ٢٧٢٩.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣١٦.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة، رقم ٥٩٧١.

قال المراغي: «أي وصاحبهما في أمور الدنيا صحبة يرتضيها الدين، ويقتضيها الكرم والمروءة، بإطعامهما وكسوتهما، وعدم جفائهما وعيادتهما إذا مرضا، ومواراتهما في القبر إذا ماتا»[١].

وذكر ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾؛ لتهوين أمر الصحبة، والإشارة إلى أنها في أيام قلائل وشيكة الانقضاء فلا يضر تحمل مشقتها؛ لقلة أيامها وسرعة انصرامها[٢].

وفي الآية دليل على صلة الأبوين الكافرين بما أمكن من المال إن كانا فقيرين، وإلانة القول، والدعاء إلى الإسلام برفق[٣].

ثانيًا: الصحبة السيئة:

وقد أشار القرآن الكريم إلى نماذج، منها:

١. صحبة الشيطان.

ذم الله تعالى صحبة الشيطان باتباع خطواته ووسواسه وتزيينه للشر، حيث قال جل وعلا: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ [النساء:٣٨].

والقرين: المقارن، أي الصاحب والخليل، وهو فعيل من الإقران[٤].

قال طرفة بن العبد[٥]:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدي

وفي معنى الآية يقول الخازن: «من يكن الشيطان صاحبه وخليله فبئس الصاحب وبئس الخليل الشيطان، وإنما اتصل الكلام هنا بذكر الشيطان تقريعًا لهم على طاعة الشيطان»[٦].

فهو الذي حملهم على صنيعهم القبيح، وعدولهم عن فعل الطاعة على وجهها، بأن سول لهم وأملى لهم، وقارنهم فحسن لهم القبائح[٧].

وفي الآية إيماء إلى تأثير قرناء المرء في سيرته، وأن الواجب اختيار القرين الصالح على قرين السوء[٨].

٢. صحبة أهل الدنيا المنهمكون في ملذاتها الغافلون عن ذكره جل وعلا.

أمر الله تعالى رسوله الكريم بملازمة المؤمنين الصادقين، وحذر من الانصراف عنهم إلى صحبة أهل الدنيا المنشغلون بها الغافلون عن ذكره، ونهاه عن طاعتهم.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾

(١) تفسير المراغي ٢١/ ٨٣.
(٢) روح المعاني، الألوسي ١١/ ٨٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٦٥.
(٤) المصدر السابق ٥/ ١٩٤.
(٥) انظر: ديوان طرفة بن العبد ص ٣٢.
(٦) لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٧٥.
(٧) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٠٣.
(٨) تفسير المراغي ٥/ ٤٠.

[الكهف:٢٨].

قال الخازن في تفسير هذه الآية: «﴿وَلَا تَعْدُ﴾ أي: لا تصرف ولا تجاوز ﴿عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ إلى غيرهم ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ أي: تطلب مجالسة الأغنياء والأشراف وصحبة أهل الدنيا ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: جعلنا قلبه غافلًا عن ذكرنا ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: في طلب الشهوات ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ ضياعًا ضيع أمره وعطل أيامه»[(١)].

والآية الكريمة تسوق للناس توجيهًا حكيمًا في بيان القيم الحقيقية للناس، وهي أنها تتمثل في الإيمان والتقوى، لا في الغنى والجاه[(٢)]، وأن الشرف بحلية النفس لا بزينة الجسد وزخرف الحياة من اللباس والطعام[(٣)].

وقد أمر الله تعالى في موضع آخر بالإعراض عن المتولي عن ذكره، القاصر نظره على الحياة الدنيا، حيث قال جل وعلا: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ [النجم:٢٩].

قال أبو حيان في هذه الآية: «فأمر صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن من هذه حاله، ثم ذكر سبب التولي عن الذكر، وهو حصر إرادته في الحياة الدنيا؛ فالتولي عن الذكر سبب للإعراض عنهم، وإيثار الدنيا سبب التولي عن الذكر، وذلك إشارة إلى تعلقهم بالدنيا وتحصيلها»[(٤)].

وفي الآية تحذير من مخالطة الغافلين والصحبة لهم، فإن صحبتهم سم قاتل، والجلوس معهم تضييع وبطالة، إلا أن يستولي نور من يصحبهم على ظلمتهم، فيجرهم إلى الله، فهذا جلوسه معهم كمال[(٥)].

(١) لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٦٣.
(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٥٠٩.
(٣) انظر: تفسير المراغي ١٥/ ١٤٣.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان ١٠/ ١٩.
(٥) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٥٠٩.

أسباب الصحبة

إن الإنسان اجتماعي بطبعه، ميال إلى الاجتماع بالناس والاستئناس بهم، فعندما يتخذ صاحبًا له لا بد أن يكون هناك رابطٌ بينهما هو الذي أدى إلى اجتماعهما وصحبتهما، فالإنسان إنما يجالس ويخالط من هو في جنسه الذي يتفق مع ميوله وأفكاره، فإذا ما حصل الاتفاق لا بد أن يؤثر أحد في الآخر، فالمخالطة والصحبة إذًا لا تخلو من رابط، وهو ما يسمى بالسبب أو الدافع الذي أدى إلى تلك الصحبة، فلو لم يكن هناك سبب أو دافع بينهما، لما استأنس كل منهما بصاحبه.

وسوف نذكر في هذا المبحث أسباب الصحبة، وهي على وجهين[1]:

أولًا: ما كان اضطراريًا:

وهي أسباب مكتسبة من غير قصد واختيار بسبب المماثلة والاتفاق بين الصاحبين في أمور شتى[2]، كصحبة يوسف عليه السلام للفتيين في السجن، فقد كانت من غير قصد واختيار، وسببها المماثلة أو الموافقة في الأحوال، قال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾ [يوسف:٣٩].

«وعبر عنهما بوصف الصحبة في السجن دون اسميهما إما لجهل اسميهما عنده إذ كانا قد دخلا السجن معه في تلك الساعة قبل أن تطول المعاشرة بينهما وبينه، وإما للإيذان بما حدث من الصلة بينهما وهي صلة المماثلة في الضراء الإلف في الوحشة، فإن الموافقة في الأحوال صلة تقوم مقام صلة القرابة أو تفوقها»[3].

ثانيًا: ما كان عن قصد واختيار:

وهي أسباب مكتسبة بقصد ونية بسبب الرغبة والحاجة[4]، كصحبة موسى عليه السلام للعبد الصالح ورغبته في التزود من العلم الذي وهبه الله إياه، قال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ [الكهف:٦٦].

قال الشعراوي: «ورغم أن موسى رسول من عند الله إلا أنه لم يتأب على أن عبدًا من عباد الله تقرب إلى الله فاتبعه موسى ليقول له: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾، وفي هذا تأكيد على رغبة موسى أن يستزيد بالعلم ممن أعطاه الله العلم، وجاء

(١) انظر: أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ١٦١.
(٢) انظر:غاية المنوة في آداب الصحبة وحقوق الأخوة، حازم خنفر ص ٣١.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٧٤.
(٤) انظر:غاية المنوة في آداب الصحبة وحقوق الأخوة، حازم خنفر ص ٣٢.

القرآن بهذه القصة ليعلمنا أدب التعلم»[1].

وكحاجته كذلك لأخيه هارون عليه السلام في صحبته لتبليغ دينه جل وعلا، قال تعالى: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص:٣٤].

قال ابن كثير: «أي: وزيرًا ومعينًا ومقويًا لأمري، يصدقني فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل؛ لأن خبر اثنين أنجع في النفوس من خبر واحد؛ ولهذا قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾»[2].

فوهب الله تعالى لموسى أخاه هارون عليهما السلام رحمةً بموسى؛ لأن هارون كان معينًا لأخيه ومساندًا له في مسألة الدعوة، وهذه لم تحدث مع نبي آخر أن يجعل الله له معينًا في حمل هذه المهمة[3].

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم:٥٣].

ولهذا قال بعض السلف: ليس أحد أعظم منة على أخيه، من موسى على هارون، عليهما السلام، فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبيًا ورسولًا معه إلى فرعون وملئه، ولهذا قال تعالى في حق موسى عليه السلام: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩][4].

وفي سؤاله من ربه يقول القرطبي في قوله تعالى: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الشعراء:١٣].

«وكأن موسى أذن له في هذا السؤال، ولم يكن ذلك استعفاء من الرسالة، بل طلب من يعينه، ففي هذا دليل على أن من لا يستقل بأمر، ويخاف من نفسه تقصيرًا، أن يأخذ من يستعين به عليه، ولا يلحقه في ذلك لوم»[5].

(١) تفسير الشعراوي ٧/ ٤٤٥٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٣٦.
(٣) المصدر السابق.
(٤) انظر: تفسير الشعراوي ١٥/ ٩١٢١.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٩٢.

حقوق الصحبة

اعلم أن لقوام الصحبة حقوقًا، فبقدر تأديتها أو الإخلال بها تدوم تلك الصحبة أو تنخرم، فعلى المؤمن أن يحفظ لصاحبه حق صحبته وحسن عشرته، فلا خير في صحبة من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له، وسوف يكون حديثنا في هذا المبحث عن حقوق الصحبة، ومن تلك الحقوق ما يأتي:

أولًا: الإحسان للصاحب:

أمر الله جل وعلا بالقيام بحقوق العباد الأقرب فالأقرب، ومن تلك الحقوق حق الصاحب وذلك بالإحسان إليه.

قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النساء:٣٦].

قال النيسابوري: «﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾ وهو الذي حصل بجنبك إما رفيقًا في سفر، وإما جارًا ملاصقًا، وإما شريكًا في تعلم أو حرفة، وإما قاعدًا إلى جنبك في مجلس، أو في مسجد أو غير ذلك من أدنى صحبة اتفقت بينك وبينه، فعليك أن تراعي ذلك الحق ولا تنساه وتجعله ذريعة إلى الإحسان، وقيل: الصاحب بالجنب المرأة؛ فإنها تكون معك وتضطجع إلى جنبك»[(١)].

وأما السعدي فيقول في تفسير هذه الآية: «﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾ قيل: الرفيق في السفر، وقيل: الزوجة، وقيل الصاحب مطلقًا، ولعله أولى، فإنه يشمل الصاحب في الحضر والسفر ويشمل الزوجة»[(٢)].

ومن الإحسان إلى الصاحب الذي يكون بجنبك، ألا تؤذيه بمنظر كريه أو ريح كريهة، وأن تحافظ على الحياء في مجلسك، فلا تجعل نعلك يحف بثيابه أو بحيث يؤذيه، وأن تعاونه إن كان محتاجًا إلى معاونتك.

ثانيًا: النصح والإرشاد:

فمن حقوق الصحبة نصح الصديق لصديقه بإرشاده للحق، كما فعل يوسف عليه السلام مع صاحبي السجن حين دعاهما إلى عبادة الله تعالى وحده، وترك ما سواه من عبادة الأصنام.

قال تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠﴾ [يوسف:٣٩-٤٠].

فناداهما باسم الصحبة في المكان

(١) غرائب القرآن، النيسابوري ٢/ ٤١٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٧٨.

الشاق الذي تخلص فيه المودة وتتمخض فيه النصيحة؛ ليقبلا عليه ويقبلا مقالته، وقد ضرب لهما مثلًا يتضح به الحق عندهما حق اتضاح، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾، وقد تحدثنا عن ذلك في صحبة يوسف عليه السلام للفتيين في السجن ونكتفي بما ذكرناه[1].

وأما في وصفه للأصنام (بالتفرق)، ووصف الله تعالى بـ(الوحدة) و(القهر) تلطف حسن، وأخذ بيسير الحجة قبل كثيرها الذي ربما نفرت منه طباع الجاهل وعاندته[2].

ثالثًا: الإعانة بالنفس والمال في قضاء الحاجات:

فمن حقوق الصحبة بذل المال والنفس للصاحب عند حاجته وافتقاره، كما بذل أبو بكر الصديق رضي الله عنه في صحبته للنبي صلى الله عليه وسلم نفسه وماله في سبيل الدعوة إلى الله تعالى، وقد ذكرنا ذلك في صحبة أبي بكر للنبي صلى الله عليه وسلم ووقوفه معه في أصعب المواقف والشدائد[3].

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٦٧٧-١٦٧٨.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٤٥.
(٣) انظر: غاية المنوة في آداب الصحبة وحقوق الأخوة، حازم خنفر ص ٨٤.

ومنها ملاحقة الكفار لهم وهم في الغار، حيث أخبر الله جل وعلا عن ذلك الموقف ونصرته لهم بقول تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٤٠﴾ [التوبة:٤٠].

فنال بذلك شرف الصحبة وهو معه في الغار، بقوله تعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

قال الخازن: «وفي هذا دليل على فضل أبي بكر الصديق، ومنها أن الله سبحانه وتعالى نص على صحبة أبي بكر دون غيره بقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ﴾.

ومنها: أن الله سبحانه وتعالى كان ثالثهما ومن كان الله معه دل على فضله وشرفه على غيره، ومنها إنزال السكينة على أبي بكر واختصاصه بها دليل على فضله، والله أعلم»[4].

وفي الآية كما ذكر بعض المفسرين عتاب من الله عز وجل لأهل الأرض جميعًا غير

(٤) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٦٥.

أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه[١].

ومما يدل على بذله ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل:١٧-٢١].

قال ابن كثير: «وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة؛ فإنه كان صديقًا تقيًا كريمًا جوادًا بذالًا لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسول الله، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم»[٢].

ومن باب الفائدة، فقد ذكر ابن الجوزي ثلاث مراتب في بذل المال للصاحب وإعانته: أهونها: المساهمة في المال، وأوسطها المواساة، وأعلاها تقديم الأخ في المال على النفس[٣].

رابعًا: العفو عن زلات وهفوات الصاحب:

وأما العفو عن الزلات؛ فذلك بأن يقيل عثرات أخيه، ويعفو عن زلاته، وأن يلتمس له أعذارًا، وأن لا يعترض على هناته دون روية؛ فإن ذلك قد يبعث على القطيعة والهجران[٤].

وقد أرشد الله عز وجل إلى ذلك، حيث قال جل وعلا في محكم التنزيل: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤].

قال أبو الطيب: «أي ادفع السيئة إذا جاءتك من المسيء بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات، ومنه مقابلة الإساءة بالإحسان، والذنب بالعفو، والغضب بالصبر، والإغضاء عن الهفوات، والاحتمال للمكروهات»[٥].

قال ابن عباس: أمر الله تعالى بالصبر عند الغضب، والحلم والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم، كأنه ولي حميم[٦].

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾، يقول البغوي: «يعني إذا فعلت ذلك خضع لك عدوك

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٤٩، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٢٦٠، فتح البيان، القنوجي ٥/ ٣٠٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٢٢.
(٣) انظر: التبصرة، ابن الجوزي ٢/ ٢٧٧، غاية المنوة في آداب الصحبة وحقوق الأخوة، لحازم خنفر ص ٨٦.
(٤) غاية المنوة في آداب الصحبة وحقوق الأخوة، لحازم خنفر ص ٩١.
(٥) فتح البيان، القنوجي ١٢/ ٢٥٢.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٧١.

وصار الذي بينك وبينه عداوة، كأنه ولي حميم، كالصديق القريب»[1].

فإذا أساء إليك مسيء من الخلق، خصوصًا من له حق كبير عليك، كالأقارب، والأصحاب، ونحوهم، إساءة بالقول أو بالفعل، فقابله بالإحسان إليه، فإن قطعك فصله، وإن ظلمك فاعف عنه، وإن تكلم فيك غائبًا أو حاضرًا، فلا تقابله، بل اعف عنه، وعامله بالقول اللين، وإن هجرك وترك خطابك، فطيب له الكلام، وابذل له السلام، فإذا قابلت الإساءة بالإحسان، حصل فائدة عظيمة[2].

آثار الصحبة في الدنيا

إن للصحبة أثرًا عميقًا في شخصية المرء وأخلاقه وسلوكه، والصاحب يكتسب صفات صاحبه بالتأثر والاقتداء، فالإنسان اجتماعي بالطبع، ولا بد أن يخالط الناس ويكون له منهم أخلاء وأصدقاء، فإن كانوا أصحاب سوء تأثر بهم وبأخلاقهم السيئة، وإن كانوا أصحاب خير وصلاح تأثر بأخلاقهم الحميدة، وأعمالهم المرضية لله عز وجل، وكانوا له عونًا على طاعة المولى جل علا.

قال عليه الصلاة والسلام: **(المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل)**[3].

وصدق الشاعر حيث قال[4]:

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم
ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

وسوف يكون حديثنا في هذا المبحث عن آثار الصحبة الصالحة والسيئة في الدنيا، وذلك في النقاط الآتية:

(١) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٣٤.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٤٩.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ١٣/ ٣٩٤، رقم ٨٠٢٨، وأبو داوود في سننه، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجلس، ٤/ ٢٥٩، رقم ٤٨٣٣، والترمذي في سننه، أبواب الزهد، ٤/ ٥٨٩، رقم ٢٣٧٨.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٦٤، رقم ٣٥٤٥.
(٤) العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي ٢/ ١٧٩.

أولًا: آثار الصحبة الصالحة:

اعلم أن للأخوة الصالحة أثرًا عظيمًا في سلوك المؤمن، فإذا أراد الله تعالى بالعبد خيرًا قيض له صحبةً من الأخيار، وهيأ له من الإخوان من يعينه على صلاح نفسه، فلا يلبث أن يبلغ قدرهم أو يبرز عليهم، ومن آثار تلك الصحبة في الدنيا:

١. الإعانة على طاعة الله وذكره جل وعلا.

فالصحبة الصالحة خير معين على طاعة الله وذكره، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر:١-٣].

قال الطبري: «وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ يقول: وأوصى بعضهم بعضًا بلزوم العمل بما أنزل الله في كتابه، من أمره واجتناب ما نهى عنه فيه، وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ يقول: وأوصى بعضهم بعضًا بالصبر على العمل بطاعة الله»[١].

وفي جعل التواصي بالصبر قرينًا للتواصي بالحق دليل على عظيم قدره وفخامة شرفه، ومزيد ثواب الصابرين على ما يحق الصبر عليه إن الله مع الصابرين، وأيضًا التواصي بالصبر مما يندرج تحت التواصي بالحق، فإفراده بالذكر وتخصيصه بالنص عليه من أعظم الأدلة الدالة على إنافته على خصال الحق، ومزيد شرفه عليها، وارتفاع طبقته عنها[٢]، وكرر الفعل لاختلاف المفعولين[٣].

وعندما بعث الله تعالى موسى عليه السلام بالرسالة، سأل ربه أن يعينه بأخيه، ويقويه به فيما حمله من الرسالة والقيام بها.

قال تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِى ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ۝٣٢﴾ [طه:٢٩-٣٢].

ثم ذكر العلة في ذلك، حيث قال جل وعلا: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤﴾ [طه:٣٣-٣٤].

يقول السعدي: «علم عليه الصلاة والسلام أن مدار العبادات كلها والدين على ذكر الله؛ فسأل الله أن يجعل أخاه معه يتساعدان ويتعاونان على البر والتقوى، فيكثر منهما ذكر الله من التسبيح والتهليل، وغيره من أنواع العبادات»[٤].

فهذه هي العلة في مشاركة هارون لأخيه في مهمته، لا طلبًا لراحة نفسه، وإنما لتتضافر جهودهما في طاعة الله، وتسبيحه وذكره[٥].

(١) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٥٩٠.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٦٠١.
(٣) فتح البيان، القنوجي ١٥/ ٣٧٧.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٠٤.
(٥) تفسير الشعراوي ١٥/ ٩٢٦٤.

٢. الثبات على الحق في الشدائد.

إن الثبات على الحق، والصبر على المحن والبلاء، يجعل الإنسان في راحة وطمأنينة دائمًا، ويشعر بمعية الله جل وعلا، وقد ذكر الله تعالى في محكم التنزيل موقف موسى عليه السلام، مع أصحابه عندما خرجوا، وطاردهم فرعون وجنوده.

قال تعالى واصفًا ذلك الموقف: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢].

قال القرطبي: «لما لحق فرعون بجمعه جمع موسى وقرب منهم، ورأت بنو إسرائيل العدو القوي والبحر أمامهم ساءت ظنونهم، وقالوا لموسى على جهة التوبيخ والجفاء: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ فرد عليهم قولهم وزجرهم وذكرهم وعد الله سبحانه له بالهداية والظفر ﴿كَلَّآ﴾ أي: لم يدركوكم ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾ أي: بالنصر على العدو ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي: سيدلني على طريق النجاة»[(١)].

فلما عظم البلاء على بني إسرائيل، ورأوا من الجيوش مالا طاقة لهم به بين الله سبحانه له طريق الهداية، فأمره بضرب البحر، وبه نجا بنو إسرائيل، وهلك عدوهم[(٢)]، وإسناد المعية إلى الرب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾ على معنى مصاحبة لطف الله به وعنايته بتقدير أسباب نجاته من عدوه، وذلك أن موسى واثق بأن الله منجيه لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:١٥].

وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء:٥٢].

واقتصر موسى على نفسه في قوله: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾؛ لأنهم لم يكونوا عالمين بما ضمن الله له من معية العناية، فإذا علموا ذلك علموا أن هدايته تنفعهم؛ لأنه قائدهم والمرسل لفائدتهم، ووجه اقتصاره على نفسه أيضًا أن طريق نجاتهم بعد أن أدركهم فرعون وجنده لا يحصل إلا بفعل يقطع دابر العدو، وهذا الفعل خارق للعادة فلا يقع إلا على يد الرسول[(٣)].

٣. غرس الثقة بالله تعالى.

فالصحبة الصالحة تغرس الثقة بالله في النفوس، وقد ذكر الله لنا موقف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه، عندما كان في الغار، والكفار على بابه، وهو يطمئن صاحبه وهو واثق بنصره تعالى.

قال جل وعلا: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠].

يقول الطبري: «إذ يقول رسول الله لصاحبه أبي بكر: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾، وذلك

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٠٦.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١١٨.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٣٥.

أنه خاف من الطلب أن يعلموا بمكانهما، فجزع من ذلك، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**لا تحزن**)، لأن الله معنا والله ناصرنا، فلن يعلم المشركون بنا ولن يصلوا إلينا»[(١)].

فمن كان في طاعة الله، مستعينًا بالله، واثقًا بوعد الله، راجيًا ثواب الله، فإن الله معه، ومن كان الله معه فلا خوف عليه[(٢)].

٤. بركة المجالسة والذكر الحسن.

فمرافقة الصالحين ينال منها الإنسان الثناء والذكر الحسن، ألم تر إلى كلب أصحاب الكهف، فقد ذكر في القرآن الكريم، لأنه سار مع الصالحين، حيث قال جل وعلا: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ [الكهف:١٨].

يقول القرطبي: «إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته، ومخالطته الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه جل وعلا، فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين»[(٣)].

فإن من جالسهم تشمله بركة مجالستهم، ويعمه الخير الحاصل لهم، وإن لم يكن عمله بالغًا مبلغهم؛ كما دل على ذلك ما جاء في الحديث الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**إن لله ملائكة يطوفون في الطرق، يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله، تنادوا: هلموا إلى حاجتكم**)، وفي آخر الحديث:(**فيقول الله: فأشهدكم أني قد غفرت لهم، قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة، قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم**)[(٤)].

ثانيًا: آثار الصحبة السيئة:

فمرافقة أهل السوء داء، وتورث الشر والضياع في الدنيا، فالصحبة متى كانت سيئة كانت عائقة للإنسان عن الخير والطاعات، لما لها من تأثير كبير على الإنسان، ومن تلك الآثار ما يأتي:

١. حب الدنيا والحرص عليها.

فالصحبة السيئة تجعل الإنسان حريصًا على الدنيا منشغلًا عن الآخرة، لذلك أمر الله جل علا بالإعراض عنهم.

قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم:٢٩-٣٠].

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٥٨.
(٢) انظر: تيسير اللطيف المنان، السعدي ص٢٣٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٧١-٣٧٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجل، رقم ٦٤٠٨.

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا﴾ أي: وإنما أكثر همه، ومبلغ علمه الدنيا، فذاك هو غاية ما لا خير فيه، ولذلك قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ أي: طلب الدنيا والسعي لها هو غاية ما وصلوا إليه»[(١)].

والحياة الدنيا وصفها بالدنيا من الدنو وهو القرب، وذلك لانحطاط مرتبتها، ولسبقها على الآخرة[(٢)].

وجملة ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ اعتراض وهو استئناف بياني بين به سبب جهلهم بوجود الحياة الآخرة؛ لأنه لغرابته مما يسأل عنه السائل، وفيه تحقير لهم وازدراء بهم بقصور معلوماتهم[(٣)].

وقد نبه أبو حامد إلى خطر صحبته، حيث قال: «وأما الحريص على الدنيا فصحبته سم قاتل؛ لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه، فمجالسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص، ومجالسة الزاهد تزهد في الدنيا، فلذلك تكره صحبة طلاب الدنيا، ويستحب صحبة الراغبين في الآخرة»[(٤)].

٢. الغفلة واتباع الأهواء.

فصحبة الغافلين المتبعين لأهوائهم تعين على الغفلة واتباع الهوى، لذلك نهى الله تعالى عن طاعتهم؛ لأن طاعتهم تدعو إلى الاقتداء بهم، قال جل وعلا في محكم التنزيل: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الكهف:٢٨].

أي: جعلنا قلبه غافلًا عن ذكرنا منشغلًا عن الدين وعبادة ربه بالدنيا.

﴿وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: مراده في طلب الشهوات فلا تكن مطيعًا له ولا محبًا لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه[(٥)].

٣. الضياع والخسران في الدنيا.

وصحبة الغافلين المتبعين لأهوائهم كذلك تورث الخسارة والضياع في الدنيا، لذلك قال تعالى بعد ما نهى عن طاعتهم: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

قال ابن كثير: «﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ أي: أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع»[(٦)].

ويقول السعدي: «﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ﴾ أي: مصالح دينه ودنياه ﴿فُرُطًا﴾ أي: ضائعة معطلة، فهذا قد نهى الله عن طاعته، لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به، ولأنه لا يدعو

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٥٩.
(٢) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، من سورة الحجرات إلى الحديد ص ٢٢٤.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ١١٨.
(٤) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ٢/ ١٧٣.
(٥) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٨٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٤.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٤.

إلا لما هو متصف به»[1].

فهو مهمل مضيع مسرف في كل أحواله[2]، ضائعًا تمضي الأيام والليالي، ولا ينتفع بشيء، وفي هذه الآية إشارة إلى أهمية حضور القلب عند ذكر الله، وأن الإنسان الذي يذكر الله بلسانه لا بقلبه تنزع البركة من أعماله وأوقاته، حتى يكون أمره فرطًا عليه، تجده يبقى الساعات الطويلة، ولم يحصل شيئًا، ولكن لو كان أمره مع الله لحصلت له البركة في جميع أعماله[3].

٤. الانحراف والضلال.

فالصحبة السيئة تصرف الإنسان عن الطاعة إلى المعصية وتزين له فعل المنكرات.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف:٣٦-٣٧].

قال الخازن: «﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾ أي نسبب له شيطانًا ونضمه إليه ونسلطه عليه ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ يعني لا يفارقه يزين له العمى ويخيل إليه أنه على الهدى»[4].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

يقول الطبري: «وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ يقول تعالى ذكره: وإن الشياطين ليصدون هؤلاء الذين يعشون عن ذكر الله، عن سبيل الحق، فيزينون لهم الضلالة، ويكرهون إليهم الإيمان بالله، والعمل بطاعته ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ يقول: ويظن المشركون بالله بتحسين الشياطين لهم ما هم عليه من الضلالة، أنهم على الحق والصواب»[5].

وبنحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [فصلت:٢٥].

وتفسير أمور الدنيا في هذا الآية بـ ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ لحضورها عندهم، كالشيء الذي بين يديك تقلبه كيف تشاء، والآخرة بـ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، لعدم مشاهدتها، كالشيء الذي خلفك، أو لكونها ستلحق بهم، وقد يعكس فيجعل ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ الآخرة؛ لأنها مستقبلة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، الدنيا لمضيها وتركها[6].

٥. سوء الذكر.

فمرافقة الصالحين كما ذكرنا ينال منها

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٧٥.
(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٩/ ٤٥٢٣.
(٣) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة الكهف ص ٦٢.
(٤) لباب التأويل، الخازن ٤/ ١٠٩.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٦٠٥.
(٦) انظر: محاسن التأويل، للقاسمي ٨/ ٣٣٥.

الإنسان الثناء والذكر الحسن، فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم، لذلك ذكر كلب أصحاب الكهف في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ [الكهف:١٨].

لأنه جالس الصالحين، أما مرافقة أهل الشر والفساد فليس منها إلا سوء الذكر، لأن صحبتهم تورث الشر وتزينه له بأنه هو الحق والصواب، فبئس الصاحب إذا كان من أهل الفساد وبئس القرين، لذلك ذم الله تعالى صحبتهم في محكم التنزيل، حيث قال جل وعلا: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ [النساء:٣٨].

عاقبة الصحبة في الآخرة

تحدثنا في المبحث السابق عن آثار الصحبة في الدنيا، وبينا أن الصحبة الصالحة تورث الخير والبركة لمن لازم أهل الصلاح، والصحبة السيئة تورث الشر والضياع لمن لازم أهل السوء والفساد، أما في الآخرة فلها عواقبها ونتائجها بحسب ملازمة الشخص.

وسوف يكون حديثنا في هذا المبحث عن عواقب تلك الصحبة في الآخرة، وذلك في النقاط الآتية:

أولًا: عاقبة الصحبة الصالحة:

فمن لازم أهل الاستقامة والصلاح في الدنيا كانت العاقبة في الآخرة كالآتي:

١. دوام تلك الصحبة والمودة.

فمن كانت صحبته في الله تعالى، وفي سبيله، فإنها دائمة بدوامه.

قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف:٦٧].

والأخلاء: جمع خليل، وهو الصاحب الملازم، قيل: إنه مشتق من التخلل؛ لأنه كالمتخلل لصاحبه والممتزج به[(١)].

قال السعدي في هذه الآية: «﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ للشرك والمعاصي، فإن

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٢٥٢.

محبتهم تدوم وتتصل، بدوام من كانت المحبة لأجله»[١].

لذلك استثنى المتقين؛ لأن النفع دخل على بعضهم من بعض[٢].

يقول الشوكاني: «ثم استثنى المتقين فقال: إلا المتقين فإنهم أخلاء في الدنيا والآخرة، لأنهم وجدوا تلك الخلة التي كانت بينهم من أسباب الخير والثواب، فبقيت خلتهم على حالها»[٣].

فكل منهم يعين بعضهم بعضًا على الطاعة، فالواحد منهم يقول لصاحبه: كنت تعينني على الطاعة، كنت توجهني وتذكرني إن غفلت، فيزداد الحب بينهما[٤]، والآية تدل على حصول الخلة وثبوتها، وهي محمولة على الخلة الحاصلة بسبب محبة الله تعالى، لذلك أثبتها للمتقين فقط ونفاها عن غيرهم[٥]، والله أعلم.

٢. النجاة من فزع ذلك اليوم.

يقول الله جل وعلا لعباده المتقين المتحابين في الله عز وجل المجتمعين على طاعته: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ۝٦٨﴾ [الزخرف:٦٨].

قال المراغي: «يقال لهم تشريفًا لهم وتسكينًا لروعهم مما يرون من الأهوال: يا عباد لا تخافوا من عقابي، فإني قد أمنتكم منه برضاي عنكم، ولا تحزنوا على فراق الدنيا، فإن الذي تقدمون عليه خير لكم مما فارقتموه منها»[٦].

ويقول السعدي في هذه الآية: «أي: لا خوف يلحقكم فيما تستقبلونه من الأمور، ولا حزن يصيبكم فيما مضى منها، وإذا انتفى المكروه من كل وجه، ثبت المحبوب المطلوب»[٧].

فالمحبة الصادقة الصافية في الله تعالى ينتج عنها ذهاب الفزع والخوف والحزن يوم القيامة، يقول الشوكاني: «يقال لهؤلاء المتقين المتحابين في الله بهذه المقالة -أي: قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾- فيذهب عند ذلك خوفهم، ويرتفع حزنهم»[٨].

وجاء في الحديث الصحيح عن السبعة الذين يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله ذكر منهم: **(ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه)**[٩].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٦٩.
(٢) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٢٦٣.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٦٤٤.
(٤) انظر: تفسير الشعراوي ٤/ ٢٢٣٥.
(٥) انظر: فتح البيان، القنوجي ٧/ ١١٧.
(٦) تفسير المراغي ٢٥/ ١٠٧-١٠٨ بتصرف واختصار.
(٧) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٦٩.
(٨) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٦٤٤.
(٩) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المسجد، رقم ٦٦٠.

٣. البشرى بدخول الجنة.

يقال لهؤلاء المتقين المتحابين في الله جل وعلا على سبيل البشرى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠﴾ [الزخرف:٧٠](١).

يقول السعدي في تفسير هذه الآية: «﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ التي هي دار القرار ﴿أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ أي: من كان على مثل عملكم، من كل مقارن لكم، من زوجة، وولد، وصاحب، وغيرهم ﴿تُحۡبَرُونَ﴾ أي: تنعمون وتكرمون، ويأتيكم من فضل ربكم من الخيرات والسرور والأفراح واللذات، ما لا تعبر الألسن عن وصفه»(٢).

٤. شفاعة الصاحب.

ورد في محكم التنزيل آيات تدل على أن المؤمن يشفع لصاحبه يوم القيامة، ومن تلك الآيات، قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ١٠١﴾ [الشعراء:١٠٠-١٠١].

قال قتادة في هذه الآية: يعلمون والله أن الصديق إذا كان صالحًا نفع، وأن الحميم إذا كان صالحًا شفع(٣).

ويقول النسفي في تفسير هذه الآية: «﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ كما للمؤمنين ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ كما نرى لهم أصدقاء، إذ لا يتصادق في الآخرة إلا المؤمنون والحميم من الاحتمام وهو الاهتمام الذي يهمه ما يهمك، أو من الحامة بمعنى الخاصة وهو الصديق الخاص، وجمع الشافع ووحد الصديق؛ لكثرة الشفعاء في العادة، وأما الصديق وهو الصادق في ودادك الذي يهمه ما أهمك فقليل»(٤).

ولفظة (الشفيع) تقتضي رفعة مكانة عند المشفوع عنده، ولفظة الصديق تقتضي شدة مساهمة ونصرة، وهو فعيل من صدق الود من أبنية المبالغة، ونفي الشفعاء والصديق يحتمل أن يكون نفيًا لوجودهم إذ ذاك، وهم موجودون للمؤمنين، إذ تشفع الملائكة وتتصادق المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧﴾ [الزخرف:٦٧](٥).

وقد ذكر الرازي تفسيرًا لهذه الآية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٦٥﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥].

يقول الرازي: «وقوله: ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ لما ذكر خلودهم بين تحقيقه؛ وذلك؛ لأن المعذب لا يخلصه من العذاب إلا صديق يشفع له أو ناصر يدفع عنه، ولا ولي لهم يشفع ولا نصير يدفع»(٦).

(١) انظر: تفسير المراغي ٢٥/ ١٠٨.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٦٩.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٦٩.
(٤) مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٥٧١.
(٥) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ١٧٠.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٨٥.

وفي ذلك ما حدث به النبي صلى الله عليه وسلم عن المؤمنين بعد اجتيازهم للصراط، فقال:(حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فو الذي نفسي بيده ما منكم من أحدٍ بأشد مناشدةً لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار، يقولون: ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون! فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم، فتحرم صورهم على النار، فيخرجون خلقًا كثيرًا قد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه)[1].

ثانيًا: عاقبة الصحبة السيئة:

ومن لازم أهل الشر والفساد في الدنيا كانت العاقبة في الآخرة كالآتي:

١. العداوة والبغضاء.

فكل صداقة في غير الله تعالى تنقلب يوم القيامة عداوة؛ لأن الصداقة الزائفة، والمحبة المبنية على تحصيل المصالح الدنيوية وجلب المنافع العاجلة، الحب فيها مصطنع مزيف، إذا هبت عليها رياح المصلحة فرقتها ومزقتها؛ لأنها لم تبن على أساسٍ راسخ ولا أصلٍ ثابت.

قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف:٦٧].

قال الشوكاني: «أي: الأخلاء في الدنيا المتحابون فيها يوم تأتيهم الساعة بعضهم لبعض عدو، أي: يعادي بعضهم بعضًا، لأنها قد انقطعت بينهم العلائق، واشتغل كل واحد منهم بنفسه، ووجدوا تلك الأمور التي كانوا فيها أخلاء أسبابًا للعذاب فصاروا أعداء»[2].

وإنما يعادي الخليل خليله يوم القيامة؛ لأن الضرر دخل عليه من صحبته، وقد ذكرنا ذلك، ويقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: «أي: كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة، وهذا كما قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت:٢٥]»[3].

فأخلاء الباطل، وصحبة السوء الذين يجتمعون على معصية الله عليهم أن يحذروا هذا اللقاء[4].

٢. الحسرة والندم.

أخبر الله جل علا عن ندم الظالم الذي

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم ٣٠٢.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٦٤٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٣٧.

(٤) تفسير الشعراوي ١٥/ ٩٣٧٢.

فارق الحق، وأطاع خليله وقرينه السيء، الذي كان سببًا في هلاكه وبعده عن الحق، وكان كذلك سببًا في حصول الندم والحسرة له يوم القيامة.

يقول جل وعلا: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ۝٢٩﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ويوم يعض الظالم نفسه المشرك بربه على يديه ندمًا وأسفًا على ما فرط في جنب الله، وأوبق نفسه بالكفر به في طاعة خليله الذي صده عن سبيل ربه ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ يقول جل ثناؤه مخبرًا عن هذا النادم على ما سلف منه في الدنيا، من معصية ربه في طاعة خليله: لقد أضلني عن الإيمان بالقرآن، وهو الذكر، بعد إذ جاءني من عند الله، فصدني عنه، يقول الله: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ يقول: مسلمًا لما ينزل به من البلاء غير منقذه ولا منجيه»(١).

وذكر ابن عباس سبب نزول هذه الآية: أن أبي بن خلف كان يحضر النبي صلى الله عليه وسلم، فزجره عقبة بن أبي معيط، فأنزل الله تعالى هذه الآية ثم ذكر في هذه الآية: أن ﴿الظَّالِمُ﴾ هو عقبة، و﴿فُلَانًا خَلِيلًا﴾ هو أبي بن خلف(٢).

والمراد بالظالم كل ظالم يرد ذلك المكان وينزل المنزل، ولا ينافيه ورود الآية على سبب خاص، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب(٣).

والمقصود كذلك من الآية ذكر هول يوم القيامة بتندم الظالم وتمنيه أنه لم يكن أطاع خليله الذي كان يأمره بالظلم، وما من ظالم إلا وله في الغالب خليل خاص به يعبر عنه بفلان، والظاهر أن الظالم يعض على يديه فعل النادم المتفجع(٤).

وفي هذه الآية تنبيهٌ لكل إنسان على تجنب قرين السوء، يقول الشنقيطي: «وهذه الآية الكريمة تدل على أن قرين السوء قد يدخل قرينه النار، والتحذير من قرين السوء مشهور معروف»(٥).

٣. التلهف والتأسف على فقد الشفيع.

قال تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾ [الشعراء:١٠٠-١٠١].

قال ابن عطية: «ثم قالوا ذلك على جهة التلهف والتأسف حين رأوا شفاعة الملائكة والأنبياء والعلماء نافعة في أهل

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٦٢-٢٦٣.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٨٤.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ١٠١.
(٥) أضواء البيان، للشنقيطي ٦/ ٤٧.

الإيمان عمومًا، وشفاعة الصديق في صديقه خاصة ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾، وفي هذه اللفظة منبهة على محل الصديق من المرء»[1].

وفي هذه الآية يقول المراغي: «وقد أرادوا بهذا الإخبار إظهار اللهفة والحسرة على فقد الشفيع والصديق النافع، وقد نفوا أولًا أن يكون لهم من ينفعهم في تخليصهم من العذاب بشفاعته، ثم ترقوا ونفوا أن يكون لهم من يهمه أمرهم ويشفق عليهم ويتوجع لهم وإن لم يخلصهم، والخلاصة: أن الأمر قد بلغ من الهول ما لا يستطيع أحد أن ينفع فيه أدنى نفع»[2].

فأيسوا من كل خير، وأبلسوا بما كسبوا، وتمنوا العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحًا[3]، لقوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الشعراء:١٠٢].

٤. طريق إلى النار.

فكما أن الصحبة الصالحة طريق إلى الجنة، فالصحبة السيئة طريق إلى النار.

قال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات:٢٢-٢٣].

قال ابن عباس: ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ نظراؤهم وأتباعهم في الظلم[4].

وقال الواحدي: «قال جماعة المفسرين: أشباههم وأمثالهم، وأتباعهم ونظراءهم وضرباءهم، وعلى هذا القول يحمل الذين ظلموا على القادة والرؤساء وأزواجهم أتباعهم ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ دلوهم عليها، أي: اذهبوا بهم إلى الجحيم»[5].

وقد أخبر الحق تبارك وتعالى عن صاحب من أهل الإيمان، وقرين كان شريك له، وما كان بينهما من الصحبة، وما نتيجة هذا الصحبة لو أنه أطاع صاحبه وشريكه.

قال تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الصافات:٥١-٥٧].

فالمؤمن في هذه الآية لم يطع صاحبه وصديقه الملازم له، فكان من الفائزين، ولو صدقه لكان من الهالكين، وقد أقسم هذا الصاحب المؤمن كما في هذه الآيات على ذلك ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾.

يقول الشنقيطي: «وقد بين جل وعلا في هذه الآيات أن رجلًا من أهل الجنة أقسم بالله أن قرينه كاد يرديه أي يهلكه بعذاب

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٣٦.
(٢) تفسير المراغي ١٩/ ٧٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٩٤.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٧.
(٥) الوسيط، الواحدي ٣/ ٥٢٣.

النار، ولكن لطف الله به فتداركه برحمته وإنعامه فهداه وأنقذه من النار[1].

والشاهد من هذه الآية: أن قرين السوء قد يكون سببًا في هلاك صاحبه ودخوله نار جهنم، والعياذ بالله.

موضوعات ذات صلة:

الاتباع، الأخوة، الصحابة، القدوة

(١) أضواء البيان، للشنقيطي ٦/ ٤٧ بتصرف يسير.